

ثقافة التعايش المشترك في المحلة العراقية

دراسة تحليلية للثقاف المجتمعي بين الحاضر والمستقبل

م. م. قصي رياض كنعان *

تأريخ القبول: ٢٠١٤/٥/٧

تأريخ التقديم: ٢٠١٤/٤/٢

المستخلص:

عند الحديث عن التنوع على مستوى المجتمع العراقي فنحن امام كيان اجتماعي يشهد تنوعا ثقافيا على مستوى الزمان والمكان والجماعة الاجتماعية ، حيث نشأنا على ارض هذا الوطن ونحن متداخلين مع غيرنا ثقافيا واجتماعيا وروحيا ، وبالتالي فان الانساق الاجتماعية في مجتمعنا حملت الميزة الثقافية للتعددية بل تفاعلت هذه الاجزاء فيما بينها مؤثرة احدها على الاخرى مشكلة الثقافات الفرعية داخل الثقافة الام .

والمحلة العراقية جزء لا يتجزأ من التركيبة المكانية الحضرية العائدة الى النسق الاجتماعي متصلا بالانساق الاخرى حيث حملت هذه المحلة الميزات والخصائص التي جعلتها تنفرد عن العالم العربي والغربي بشكلها العمراني وبيئتها العامرة التي تزخر بالجماعات الاجتماعية المتنوعة ذات الثقافات المتعددة ، ومع وجود المحلة البغدادية والبصراوية والموصلية والكريلانية والنحفية والبابلية الى غيرها من المحلات المتواجدة هنا وهناك في عموم ارجاء هذا الوطن ، الا انها انجمت تحت مظلة الخصوصية الثقافية عندما عاشت بين احضانها الجماعات الثقافية المتنوعة بطابع ملؤه الحب والتسامح والمودة والتضحية ، فضلا عن التداخل الاجتماعي بين البيوت والنفوس معبرة عن روح الالتصاق بالمكان (الوطن) والفرد (الثقاف) .

وفي بحثنا هذا حاولنا ان نتناول ثقافة التعايش المشترك وكيف تتمت داخل هذا الجو المكاني الخاص بالمجتمع العراقي (المحلة) وكيف اجتمعت كل المحلات العراقية بخصائص ثقافية عندما انضوت تحتها الثقافات الفرعية لينتسج لدينا عنصر الثقاف

* قسم علم الاجتماع/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

المجتمعي الذي جمع كل الجماعات الاجتماعية محاولين تقريب الصورة بين الحاضر والمستقبل وكيف يمكن ان نعزز قيم التسامح والالفة بين هذه الشرائح داخل هذا العنصر المكاني (المحلة) .

المقدمة :

إن الإنسانية اليوم تتطور في ظل حضارة عالمية واحدة تتميز بالتعدد الثقافي ولا يمكن الحديث عن صراع بين الحضارات فالعالم يتجه لكي يصبح موحد الحضارة في ظل ثقافات متعددة تتفاعل وتتجاوز فيما بينها بشكل يومي، والعالم يعيش على وتيرة من التمازجات والتشابكات، ولا توجد ثقافات موحدة منسجمة تعيش في فضاءات ثقافية متميزة في العالم المعاصر، إذ ان الاندماج العالمي الذي خلقته الثورة الاقتصادية والإعلامية في ظل ما أصبح يعرف بالعولمة، حرك عملية التفاعل والاحتكاك الثقافي بشكل سريع وتعسفي أحيانا ، مما أحدث تحولات جذرية وتوترات ثقافية، نتيجة صعوبة إدراك واستيعاب قيم المنظومات الثقافية للأخر من جهة، ونتيجة للاستعلاء الثقافي والتمركز الذاتي والذي يحول دون الاعتراف بالحق في الاختلاف الثقافي من جهة أخرى.

إذن هناك حتمية للاتصال و التفاعل بين مختلف الحضارات والثقافات على اعتبار أن التبادل الحضاري ظاهرة إنسانية متأصلة في التاريخ الإنساني، ومن هنا ضرورة إرساء تواصل حي ودائم ومثمر بين مختلف الخصوصيات الثقافية حتى يصبح العالم موطناً رحباً للجميع ، و حتمية الاتصال لا تعني محو الخصوصيات الثقافية وذوبانها للتوحد في حضارة عالمية واحدة ، والميل القوي والمتسارع لتكريس هيمنة حضارة واحدة قد يؤدي على المستوى البعيد إلى عدم إمكانية التواصل والتفاعل البيئي الثقافي ، لذلك لابد من ترك مساحة للخصوصيات الثقافية لمختلف الشعوب لغرض بناء حضارة إنسانية مشتركة.

أما الحديث عن التنوع على مستوى الوطن فنحن امام كيان اجتماعي يشهد تنوعاً ثقافياً على مستوى الزمان والمكان والجماعة الاجتماعية ، حيث نشأنا على ارض هذا الوطن ونحن متداخلين مع غيرنا ثقافياً واجتماعياً وروحياً ، وبالتالي فان الانساق الاجتماعية في مجتمعنا حملت الميزة الثقافية للتعددية بل تفاعلت هذه الاجزاء فيما بينها مؤثرة احدها على الاخرى مشكلة الثقافات الفرعية داخل الثقافة الام .

والمحلة العراقية جزء لا يتجزأ من التركيبة المكانية الحضرية العائدة الى النسق الاجتماعي متصلا بالأنساق الأخرى حيث حملت هذه المحلة الميزات والخصائص التي جعلها تتفرد عن العالم العربي والغربي بشكلها العمراني وبيئتها العامرة التي تزخر بالجماعات الاجتماعية المتنوعة ذات الثقافات المتعددة ، ومع وجود المحلة البغدادية والبصراوية والموصلية والكربلانية والنجدية والبابلية الى غيرها من المحلات المتواجدة هنا وهناك في عموم ارجاء هذا الوطن ، الا انها اختلفت تحت مظلة الخصوصية الثقافية بطابع ملؤه الحب والتسامح والمودة والتضحية ، فضلا عن التداخل الاجتماعي بين البيوت والنفوس معبرة عن روح الالتصاق بالمكان (الوطن) والفرد (الثقافة) .

وفي بحثنا هذا حاولنا ان نتناول ثقافة التعايش المشترك وكيف تتمت داخل هذا الجو المكاني الخاص بالمجتمع العراقي (المحلة) وكيف اجتمعت كل المحلات العراقية بخصائص ثقافية عندما انضوت تحتها الثقافات الفرعية ليتشكل لدينا عنصر الثقافة المجتمعي الذي جمع كل الجماعات الاجتماعية محاولين تقريب الصورة بين الحاضر والمستقبل وكيف يمكن ان نعزز قيم التسامح والالفة بين هذه الشرائح داخل هذا العنصر المكاني (المحلة) .

وعلينا القول في هذا المجال ان ثمة مجموعة قيم إنسانية أساسية مشتركة بين كل الفضاءات الثقافية والدينية في وطننا ، وينبغي استثمارها والتركيز عليها لتكريس وحدة الإنسانية إن قيما مثل : العدالة، رفض العنف، رفض الظلم، الإيثار، المساواة، التسامح، التعاون، المحبة... وأحاسيس مثل السعادة، المعاناة، الألم، الإحباط، الغبن، الرأفة، الرحمة هي جزء من إنسانية كل إنسان، ولذلك فالجوهر الإنساني حاضر في كل التقاليد الثقافية والدينية لكل الشعوب عبر التاريخ الطويل للإنسانية، وبالتالي لا يمكن للإنسانية العيش والبقاء بدون أخلاقية عالمية تركز التسامح ونبذ العنف والتطرف بكل أشكاله ، ونحن في أمس الحاجة اليوم إلى إيكولوجيا ثقافية لتحويل ثقافتنا وأدياننا إلى ركائز للتنمية والتضامن والمسؤولية الجماعية لبناء أفق مشترك للإنسانية جمعاء .

وبمعنى آخر، ان ثقافة العناصر المكونة للمجتمع العراقي، كانت في حالة من التفاعل المستمر سلما ام حربا، وفقا لرؤية او ثقافة كل جماعة من تلك الجماعات، المكونة

للمجتمع ، وعلى الرغم من وجود عناصر موحدة كثيرة، كلغة التفاهم المشتركة في معظم الأحيان بين مختلف الجماعات السكانية، وكذلك الدين المشترك بين نسبة عالية من السكان، ووحدة التفاعل الحضاري العامة المشتركة منذ عدة عصور فضلا عن مصدر الحياة الأول (دجلة والفرات)، غير ان التناسق الظاهري في الدم والديانة ووحدة المجتمع كان يضم اختلافات مفعمة بالأهمية ، ولذلك فان الخليط المكون (قومي . ديني . عرقي . سياسي . اقتصادي) خلق توازنا نفسيا واجتماعيا جديدا.

من كل ما تقدم يمكننا القول، ان تفاعل العناصر المكانية والبشرية في العراق في اطار التاريخ المشترك او العنصر الزماني لجميع تلك العناصر، خلق مركبا جمعيا ذا مواصفات نفسية خاصة، تقوم على أساس مواجهة التحدي المستمر للتفاعلات المكانية (الطبيعية) الداخلية، وفي الوقت نفسه فان هذا المركب متحفز دائما للتحديات البشرية الوافدة الى ساحته بصورة غير سلمية(حرب او الاحتلال) باستمرار، وثنائية التحدي (الداخلي والخارجي)، (الطبيعية والبشرية)، جعلت من تركيبة المكون الاجتماعي والنفسي العراقي قادرا على مواكبة الأحداث وتفاعل جميع المكونات الداخلة في تركيبته الخاصة، وقبول التحديات الخارجية في حدود زمانية معينة ، ومكانية عبر المحلة العراقية ولعل ذلك خلق مكونا ذا مركب، نفسي - اجتماعي خاص بجماعة تميزت بالعبقرية الاجتماعية والسياسية القادرة على خلق التناغم بين جميع المكونات الداخلية الخاصة به وتذويبها لصالح المكون المشترك مع امكانية التفاعل والتجدد الدائم مع مختلف العناصر والظروف المحيطة به

انقسم بحثنا هذا الى ثلاث مباحث تناولنا في المبحث الاول الاطار المفاهيمي للبحث من موضوع وأهمية وأهداف ومصطلحات ومنهجية ، اما المبحث الثاني فقد تناولنا فيه عبر محاور الاول منها مقارنة تعريفية لثقافة التعايش المشترك والمحور الثاني الجانب الايكولوجي والقيمي للمحلة العراقية والمحور الثالث الخصائص الثقافية للمحلة العراقية اما المبحث الثالث فقد حاولنا فيه تعزيز الحاضر واستشراف المستقبل في التعامل مع هذا المكون المكاني الاجتماعي وكيف يمكن الحفاظ والموائمة مع التحديات مختتمين بحثنا بأهم النتائج والتوصيات والمقترحات .

المبحث الأول

الإطار المفاهيمي للدراسة

أولاً : موضوع الدراسة

بات من الضروري والمؤكد ان نشر ثقافة العيش المشترك والتسامح وقبول الآخر المختلف حاجة أساسية وملحة يجب زرعها في نفوس وعقول الجيل الناشئ لأنها تساهم بشكل فعال في خلق جيل واع قادر على تحمل أعباء المسؤولية وقيادة المرحلة القادمة بشكل ايجابي وسليم لان مثل هذه الثقافة تشكل ترسيخاً قوياً لمعالم الوحدة الوطنية الذي ينبغي بناؤها على اساس من الثقة وبعيدا عن الهواجس.

وتتجلى طبيعة الدراسة في الاجابة عن التساؤلات الاتية :

- ما المقصود بثقافة التعايش وما مقوماتها ؟

- هل يوجد تعايش في المحلة العراقية ؟

- عناصر التعايش ومقوماته ؟

ثانياً : اهداف الدراسة

- تحليل ثقافة التعايش المشترك في المحلة العراقية .

- ربط الجانب الايكولوجي بالجانب القيمي للمحلة .

- ابراز نمط التثاقف المجتمعي بين الحاضر والمستقبل .

ثالثاً : اهمية الدراسة

التعايش المشترك من اوضح الظواهر الاجتماعية في المجتمع العراقي انطلاقاً من متغيرات حضارية ودينية وثقافية ، فعلى مر العصور كانت هناك هجرات متعددة ويمرور الزمن يصبح هذا التعدد جزءاً من تكوين المجتمع العراقي .

من هذا المنطلق يكون التعايش امراً طبيعياً في العراق خاصة عندما تحتدم المشاكل وتمر الظروف المختلفة ليقوى هذا التعايش ، وتتخلص اهمية هذه الدراسة كونها تسعى الى طرح موضوع يضيف الى الواقع العراقي في التعايش محاور واضاءات تؤكد على القيم والمعاني الايجابية باطار نظري وتوظيف وتحليل تطبيقي لما هو موجود في المحلة العراقية ، فضلاً عن ذلك يرمي البحث الى توضيح المضمون العلمي والعملية لمفهوم التعايش لما يكتسبه من اهمية كبيرة في كونه العامل الاساسي في زيادة تماسك المجتمع وتوطيد

علاقاته، بالإضافة الى فهم التنوعات الثقافية وكيف تشكل مصدر قوة للمجتمع المتعدد ثقافيا واثنيا وهذا يرفع من مستويات التطور والتقدم في الجوانب الثقافية والاجتماعية وغيرها.

رابعاً : مفاهيم الدراسة

أولاً : الثقافة culture

الثقافة مفهوم ديناميكي يراد منه تخصيص للمدارك بالإطلاع واستثمار للمعرفة بالتخمين والتدبر والسعي وهي حصيلة معلومات متنوعة ومتراكمة وأساليب في التفكير تتسع وتضيق بحكم ارتباطها بقضايا الإنسان عموماً وبما يتصل بالذاتية ومجالات الهوية خصوصاً فالمتقف غير العالم المتخصص وإنما هو الشخص الذي يكون واعياً عن طريق حسه الاجتماعي بإنسانيته سواء تعلق الأمر بعصره أو خارجه وهذا هو الجانب الإنساني في الثقافة (١).

ويعرفها اشلي منتاجو بأنها استجابة الإنسان لإشباع حاجاته فهي الوسائل التي يلجأ إليها الإنسان لإشباع تلك الحاجات ، وفي رأي توماس فالثقافة تتعلق بالنواحي الروحية والقيم الجمالية والفنون .

أما ماكيفر وأدوم فقد عرفا الثقافة بأنها مجموع ما ينتجه المجتمع من نظم وعادات وتقاليد واختراعات (٢).

وتعريف تايلور من أشهر واشمل التعاريف حيث يذكر انها الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والاخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات التي يكتسبها الانسان بوصفه عضواً في المجتمع (٣).

وتعريفنا الإجرائي للثقافة هي أنماط ممارسة الحياة اليومية وأنواع التفكير والوسائل المادية التي وصلتنا عن طريق الأجيال ومن ثم تنقل إلى الأجيال التي بعدها .

Coexistence

ثانياً : التعايش المشترك

(١) ابراهيم مذكور ، معجم العلوم الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥، ص١٩٩.

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٢٠.

(٣) محمد الخطيب ، الانثربولوجيا الثقافية ، دار علاء الدين للنشر والتوزيع ، سوريا - دمشق ، ط٢،

او ما يعرف بالتعددية الثقافية التي يطلق من خلالها على المجتمعات التي تتعايش فيها ثقافتان فاكثر ، وهي حركة تدعو الى التغيير وتقوم هذه الثقافة على عدة عوامل منها اللغة او العرق وتشكل هذه الثقافة محيطا للتسامح والتاخي وربما للتنافر والتضاد .

والتعايش يعني التعلم للعيش المشترك، والقبول بالتنوع، بما يضمن وجود علاقة ايجابية مع الآخر. فلقد عرّفت هوياتنا العلاقة مع الآخر، فعندما تكون العلاقات ايجابية وعلى قدم المساواة معه، فإن ذلك سوف يعزز الكرامة والحرية والاستقلال، وعندما تكون العلاقات سلبية ومدمرة فإن ذلك سيقوّض الكرامة الإنسانية وقيمتنا الذاتية. وهذا ينطبق على الفرد والجماعة والعلاقات بين الدول، فبعد أن شهدنا حريين عالميتين وحروباً لا حصر لها من الدمار والإبادة الجماعية، صارت مسألة تعزيز التعايش على جميع المستويات أمراً ملحاً للقرن الواحد والعشرين^(١).

غير أن ما يميز التعايش المجتمعي، هو أن مختلف الجماعات في كثير من الأحيان، سواء كانت عرقية أو دينية، والتي تعيش في فضاء العيش المشترك، وبذلك يكون تحديد علاقتهم مع بعضهم البعض، وكيفية إمكانية تطوير هذه العلاقات واستدامتها وتطبيعها هو ما يشكل تحدياً رئيسياً للقرن القادم ، ولأنه على مستوى المجتمع المحلي التقليدي والذي لا زال يعيش وفق التصور النمطي تجاه بعضه البعض، ووفقاً لماري فتردوف، «وفي وقت سابق من التعارف الهادف في عمل العلاقات المجتمعية والتي تبدو على مستوى الأولوية نفسها عند المعنيين، مع التأكيد على فكرة وجود الانسجام بين الجماعات المختلفة مع الهدف المقصود من إدماج الأقليات في المجتمع الأوسع في أسرع وقت ممكن^(٢)، وقد وضعت التعريفات في وقت لاحق على أن تكون الأهداف أكبر بكثير من مجرد التركيز على فكرة المساواة في الحقوق الأساسية والفرص لجميع الفئات، بل يكون الهدف هو تشجيع التنوع الثقافي في الوقت نفسه، باعتباره الخيار الأفضل .

ثالثاً : المحلة Mahala

(١) حسن الصفار ، التنوع والتعايش ، دار الساقى ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٩ ، ، ص٢٧ .

(٢) فاروق مصطفى إسماعيل ، العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العرقية ، ط٣، دار قطري بن الفيحاء ، قطر ، ١٩٨٦ ، ص٧٧ ،

تعرف بانها الجماعة الاولية التي تنشأ تلقائياً في منطقة صغيرة متميزة ومحدودة مكانياً تجمعها صفة المشاركة الودية بين أعضائها الذين يقيم معهم بجوار بعضهم وترتبطهم علاقة شخصية مباشرة ووثيقة ومستمرة نسبياً (١).

أما العالم مان فقد عرفها بانه لا يمكن تصورها بالدرجة الأساس على انها أداة للإصلاح الاجتماعي او العمل الاجتماعي (٢).

كما عرفها العالم الجغرافي كرستوفر بانها تنظيم اجتماعي من السكان يسكنون موقعا جغرافيا متقاربا وهذا لا يشمل فقط الروابط الاجتماعية بين الافراد معينين من السكان بل يشمل جميع روابط تلك المجموعة مع الافراد غير المتجاورين (٣).

رابعا : الثقافة المجتمعي Acculturation community

يعرف على انه تآثر الثقافات بعضها ببعض نتيجة الاتصال بين الشعوب والمجتمعات مهما كانت طبيعة هذا الاتصال واهدافه ويتطلب اولا احتكاكا مطولا بين ثقافتين مختلفتين ثم تأثير احد الثقافتين في الاخرى او التأثير الثقافي المتبادل فيما بينهم ، بحيث تتعدل المسالك والنماذج الثقافية والاجتماعية عند احد الفرقاء او عند الاثنين (٤).

والثقافة هو العملية التي يستطيع الفرد أو الجماعة عن طريقها اكتساب الصفات الثقافية جماعة أخرى من خلال الاتصال أو التفاعل بينهما. غير أن الثقافة بالنسبة للفرد هو عملية تعلم اجتماعي أشبه بعملية التنشئة الاجتماعية التي تلعب فيها اللغة دوراً جوهرياً. أما بالنسبة للمجتمع فالثقافة هو عملية انتشار القيم والمقاييس والأحكام الاجتماعية إلى المجتمعات الأخرى مع تعرضها لعملية التبدل التي تجعلها منسجمة مع ظروف وأحوال المجتمعات التي دخلت إليها. غير أن هذه المقاييس والقيم والأحكام التي

(١) طلعت ابراهيم لطفي ، اثر الحضرية في جماعات الجيرة ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، مطابع دار الوطن ، الكويت ، بدون تاريخ ، ص ٩٣.

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩٤

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩٨

(2) عيسى الشماس ، مدخل علم الانسان ، منشورات اتحاد كتاب العرب ، دمشق - سوريا ، ٢٠٠٤ ، ص ١٤٦.

دخلت إلى هذه المجتمعات غالباً ما تسبب لها ظاهرة الصراع الحضاري أي الصراع بين القيم الأصيلة والقيم الدخيلة.^(١)

وتعريفنا الإجرائي للتثاقف المجتمعي بأنه الاحتكاك بين ثقافات متعددة في السمات والخصائص والذي يؤدي إلى تبادل في عناصرها الثقافية لتفرز ثقافة تحمل في طياتها السمات والخصائص المشتركة داخل المجتمع الواحد .

رابعا : منهجية البحث

- المنهج الاثنوغرافي

يقصد بالمنهج الاثنوغرافي الدراسة الميدانية العلمية للظواهر الاجتماعية وذلك عن طريق اتصال الباحث الاثنوبولوجي بموضوع البحث اتصالاً مباشراً يعيش فيه بين الجماعات المراد دراستها ، ويعتمد المنهج الاثنوغرافي على دراسة الظاهرة كما توجد في الواقع ويهتم بوصفها وصفاً دقيقاً ويعبر عنها كيفياً أو كمياً، فالتعبير الكيفي يصف لنا الظاهرة ويوضح خصائصها، أما التعبير الكمي فيعطيها وصفاً رقمياً يوضح مقدار هذه الظاهرة أو حجمها أو درجة ارتباطها مع الظواهر الأخرى^(٢).

- المنهج الاثنوبولوجي

من المناهج المهمة في مثل هذه الدراسات اذ يهيء هذا المنهج من خلال أساليبه وأدواته الأرضية المناسبة لتحقيق الأهداف والنتائج المرجوة من الدراسة واعظم ما يميز هذا المنهج هو قدرته على المقارنة وايجاد الاطر المناسبة لفهم الواقع الإنساني فهما علمياً غير متحيز ، ودراسة الباحث ارتبطت بالجانب الجغرافي الاثنوغرافي للمحلة العراقية والمنهج الأثنوبولوجي بصيغته الميدانية للكشف عن الاسس والقواعد التي تعتمد على دراسة الجماعات التقليدية والمعقدة فضلا عن الثقافات التي تضم هذه الجماعات، والبحوث الاثنوغرافية جزء مهم من المنهج الأثنوبولوجي وهي تهدف إلى اكتشاف ماهية الحقائق المتمثلة في واقع الجماعات من خلال استخدام الملاحظة الميدانية والاعتماد على بدهة

(١) فريدريك معتوق ، معجم العلوم الاجتماعية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٨ ، ص ٢٠.

(٢) مصطفى نمر دعمس ، منهجية البحث العلمي في التربية والعلوم الاجتماعية ، دار غيداء للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٨ ، ص ٢٣٩ .

التفكير والبصر فيما يجري امام العين لغرض فهمه وتفسيره التفسير الموضوعي المناسب
(١).

المبحث الثاني

المحلة العراقية ... والتعايش

أولا : الجانب الايكولوجي والقيمي للمحلة العراقية

ان الحياة الاجتماعية تابعة للحياة الطبيعية التي تولد التأثير في الاجتماع من حيث تنمية المجتمع وتطويره ، اذ ان العوامل الاجتماعية تعدل البيئة تعديلا اجتماعيا لكي تتمكن من ترقية الشخص والحفاظ على بنائه الوظيفي ، ونلاحظ في المحلة العراقية كيف ان التصميم الايكولوجي يعكس السلوك الاجتماعي وطبيعة التفاعل والعلاقات والنشاطات الاجتماعية التي تشير الى ذلك النوع من المحال السكنية لذا نجد سمات حضارية مميزة لكل نوع ومختلفة فيما بين المحلة القديمة عن الحديثة ، وفي واقع الامر ومن هذا المنطلق يمكن القول انه في المدينة نجد ان المحلات السكنية القديمة والحديثة هناك فوارق بينهما في السمات الايكولوجية لكنهما يشتركان في الادوار الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي والتعايش والتعامل (٢).

وعلى القول ان من اهم عوامل قيام المحلة بروحيتها العربية هو سلوك الانسان وعلاقاته الاجتماعية التي تتجاوز الروابط العائلية بكيبتها والتعبير عن ذلك بمظهرها الخارجي حيث السور الذي يحيط بها وبنيتها الخارجية حيث وجود الجوامع والكنائس والاسواق المرتبطة اجتماعيا وقيميا ، والتجمع السكاني على وفق الانتماء القبلي او المتأني من اصل مكاني واحد او اكثر له الاثر في التشكيل الاجتماعي للمحلة كما ان هناك عوامل اخرى كالمهنة والعوامل الدينية والقومية وغيرها تؤثر على تشكيل وجود هذه المحلة (٣) .

(١) قيس النوري ، المدخل إلى علم الإنسان ، منشورات وزارة التعليم ، بغداد - العراق ، ١٩٨٢ ، ص ٩٨
(٢) عبد الفتاح صالح اليافعي ، التعايش الإنساني والتسامح الديني في الإسلام ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ناشرون ، دمشق - سوريا ، ٤١
(٣) محمد حسين محمد ، التنوع الاثني والديني في كركوك ، مؤسسة موكرياني للبحوث والنشر ، اربيل - العراق ، ٢٠٠٦ ، ص ١٩٥ .

وقد مرت المحلة العراقية في عموم الوطن بمراحل تطور شأنها شأن المدن حيث تباينت هذه المراحل في امتدادها الزمني كما تباينت في شمولية التغير والتطور بما في ذلك الاحتكاك بالحضارات الأخرى وبالأخص مع الحضارة الغربية وأداتها ثقافة النقل والاتصال والبناء .

ويمكن تحديد مقومات المحلة العراقية بعناصر كثيرة منها (أماكن العبادة - مسجد أو كنيسة- ، الدكاكين ، الدور السكنية ، الحمامات ، المدافن ، المقاهي ، شبكة دروب المحلة ، المدارس) وهذه المقومات تعتبر من السمات المشتركة بين كثير من الثقافات.

ثانيا : الخصائص الثقافية للمحلة العراقية

١. التنوع الثقافي والاجتماعي

تتسم المحلة العراقية بالتجانس الثقافي لجماعاتها الثقافية المختلفة مع بعضها البعض وهذا التجانس متأني من وجود تنوع في الثقافات داخل هذه الأحياء ووجود ثقافات فرعية داخل الإطار العام حيث حملت خصائص ومميزات مكنت كل جماعة من الاستمرار في جو من التالف والتواد مع احتفاظ كل جماعة بالهوية الثقافية الخاصة المرتبطة بعقيدة أو بزي أو لهجة معينة .

ان وجود هذا التنوع انتج بدوره امتزاجا نوعيا في الترتيب الحضاري والاجتماعي وطرحت كل جماعة وثقافة ارضية ثقافية رئيسية مشتركة تكونت بحكم التعايش المشترك في اطار دولة واحدة تساهم ربما في ترسيخ قواعد هذا التثاقف^١.

٢. التجاور المكاني

يعتبر المجتمع اكبر جماعة اجتماعية ويسعى عدد كبير من الجماعات للارتباط مع بعضها ، وان المجتمع يشغل عادة ارضا محددة وان علاقات المجتمع الاساسية هو ان اعضاؤه يتفاعلون معه بعضهم الآخر ويشتركون في اكبر مجموعة من القيم ، والتجاور اصغر وحدة اجتماعية في المحلة بعد الاسرة ومن ابسط الروابط واولها التي تجمع عدد من الاشخاص وجها لوجه للمساعدة المتبادلة يربطهم اواصر العلاقات الاولية ويفتح مجالا للتساند والتآزر ثم يؤدي الى التجانس والاندماج وبشكل بالنتيجة جماعة اجتماعية اولية

(١) محمد حسين محمد ، التنوع الاثني والديني في كركوك ، مصدر سابق ، ص ١٩٦

تتميز باحساس قوي بالشعور الذاتي^(١)، وتلعب هذه العلاقات دورا مهما في عملية الضبط الاجتماعي غير الرسمي، وفي معظم المحلات العراقية ثمة عوائل تنتمي الى جماعات اثنية مختلفة تعيش جنبا الى جنب داخل ازقة وشوارع مختلفة يعرفون بعضهم البعض ويتزاورون ويتبادلون الخدمات باستمرار وما يحتاجونه من ادوات ومعدات منزلية وقد يستدنيون من بعضهم المال احيانا في وقت الحاجة، او قد يتعاونون في اعمال مشتركة وربما يوجد شراكات في بعض المشاريع الاقتصادية الصغيرة كفتح محل او شراء سيارة اجرة وما شابه ذلك.

ان التفاعل بين الجماعات المتجاورة مكانيا يتوسع ويمحو احيانا الفواصل الاجتماعية بين بعض العوائل المختلفة في الاصل العرقي او المذهبي او الثقافي وذلك لعمق التعايش المشترك تاريخيا والمصحوب بنشابه في العادات والتقاليد الاجتماعية لان الاقامة المشتركة والمتجاورة من شأنه ان يوجد مرور الزمن تقريبا في العواطف والمشاعر وتكوينها للوئام في التماثل بين الجيرة في ذكريات الماضي والحوادث التي مرت بها المدن والمحلات سوا أكانت امجادا او كوارث وهذا التجاور والتماثل بدوره يعد عاملا كبيرا في خلق نظرة متشابهة نحو المستقبل لتقارب العواطف والمشاعر على الرغم من اختلاف الاثنيات والمذاهب ومجمل هذه العمليات التي تحدث نتيجة للاقامة المشتركة في محلة واحدة ومنطقة محددة حيث تكونت قرابة الجوار وان كان سكانها لا يرتبطون بروابط الدم والأصل المشترك واللغة المشتركة وينظر هؤلاء الى انفسهم ان الجيرة والتعارف والرفقة تلعب دورا اكبر من غيرها من الضوابط والقيم^(٢).

٣. الصداقة والرفقة

يمكن الاستناد الى مؤشر الصداقة والرفقة على مدى وجود الاتفاق والتوافق بين الجماعات الاثنية المختلفة في منطقة معينة والصداقة بين الافراد مؤشر مهم على القبول الاجتماعي

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٨

(٢) جوزيف ياكوب، ما بعد الاقليات بديل عن تكاثر الدول، ترجمة حسين عمر، المركز الثقافي العربي،

بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٤، ص ١٧٣.

لأنها تأتي نتيجة التوافق التام بين الافراد الذين تربطهم علاقات غير رسمية ومباشرة وتشير الى تفاعلهم الاجتماعي وهي من الشروط الرئيسية لإدامة التماسك والتضامن .

٤. الزواج

في المحلة العراقية يتعدى الزواج الخط الاثني والعرقى وهو يحدث بين افراد ينتمون الى جماعات اثنية وعناصر سكانية مختلفة داخل المحلة الواحدة ، وهو يعد عاملا من عوامل التنوع البشري من حيث المميزات الفسيولوجية مما يؤدي الى انتاج افراد لها اتحادات جينية مختلفة لأنه من انتاج اب وام مختلفين .^(١)

ويمكن القول ان الزواج يعتبر احد المؤشرات المهمة التي يتحدد مدى القبول الاجتماعي بين الجماعات المختلفة ثقافيا في منطقة او محلة واحدة لان الزواج لا يحدث كيفما اتفق حيث يوجد عوامل شعورية او لا شعورية تتحكم في الاختيار كالمسافة الاجتماعية والمكانية بين الزوج والزوجة والاصل الديني والاثني والمستوى التعليمي والتربوي وغيرها ، كل هذا يلعب دورا مهما في الاختيار وعندما يتعدى هذا الاختيار الخط الاثني يدل على وجود درجة عالية من الاندماج والتوافق ويمحو الفواصل بين المجموعات المختلفة لان الاختلاط بالمصاهرة ينعكس على الجانب الاجتماعي حيث يزيد من خطوط هندسية العلاقات الاجتماعية مما يربط العائلة مستقبلا بقسم من المجتمع ويساعد كذلك على ربط وحدات اجتماعية بعضها ببعض .

المبحث الثالث

الثقافة المجتمعي في المحلة العراقية بين تعزيز الحاضر واستشراف المستقبل

يعيش ابناء البشرية في هذه الحياة على تنوعهم وتمايزهم ضمن حياة مشتركة متداخلة المصالح والمنافع ولا يمكن لاي نوع من انواع البشر ان يختاروا لانفسهم زاوية من زوايا الدنيا فيقبعون فيها بعيدا عن الاخرين من دون اثر او تأثير .

ثم ان هناك تنوعا داخل كل مجتمع في المذاهب والطوائف والاقليات او العرقيات ، ومع التطور العلمي والتكنولوجي الهائل في حياة الانسان الغيت المسافات وتساقت الحدود بين

(١) عبد الله عفيفي ، حق الجار ، دار الاعتصام للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر ١٩٨٨ ، ص ١٤ .

ابناء البشر وأصبح العالم قرية واحدة الامر الذي يفرض على الناس ان يتعايشوا مهما تنوعت انتماءاتهم وتعددت هوياتهم من اجل مصالحهم المشتركة .

ولكي يعزز الثقافة في المحلة العراقية في الوقت الحاضر يجب استحضار شرطين اساسيين (١) :

١. ضمان الحقوق والمصالح للأطراف المختلفة ، فإذا شعر طرف من الاطراف بانتهاك حقوقه او التعدي على مصالحه من قل الطرف الاخر فلن تتوفر حينئذ اجواء التعايش والثقافة ، بل ربما يحصل تنازع وصراع بين الجهات المتنوعة في المجتمع حيث يمنع الجهة المضطهدة من التفاعل الايجابي مع بقية الفئات .

لذا تشدد الاديان والتشريعات على لزوم رعاية حقوق الاخرين وعدم الاعتداء على المخالفين وان وجود حساسية ما عند فئة تجاه اخرى لا يصح ان تؤثر على الالتزام بالعدل في الحقوق ، ولا يجوز للفرد ان ينحاز في موقفه على حساب الحق والعدل لصالح انتماءه العاطفي ومنها قوله تعالى (يا أيها الذين امنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا) (النساء اية ١٣٥).

٢. الاحترام المتبادل فالانسانية جوهر واحد مشترك عند ابناء البشر ، فعليهم ان يحترموا انسانيتهم باحترام بعضهم البعض ، وحتى اذا ما اختلفت اتجاهاتهم لكنهم نظراء ومتساوون في انسانيتهم وكما يقول الامام علي عليه السلام (الناس صنفان : اما اخ لك في الدين ، او نظير لك في الخلق) .

وتشجع التعاليم السماوية والداستير والتشريعات على حسن التعامل مع الاخر ايا كان والتواصل معهم على اسس الاحسان والاحترام وحفظ الحقوق ، لكي يتحول هذا التعايش الى اداة للتعارف والتواصل بين افراد المجتمع في المنطقة الواحدة ومنها المحلة (٢).

(١) فاروق مصطفى اسماعيل ، العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العرقية ، دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع ، قطر ، ط٣ ، ١٩٨٦ ، ص ١٦٨

(٢) فاروق مصطفى اسماعيل ، العلاقات الاجتماعية ، مصدر سابق ، ١٦٩

ان مجتمعنا العراقي مر بمسيرة سياسية واجتماعية متنوعة الاحداث والظروف لكنها بنفس الوقت كانت تحديات لمهمة صعبة ومشرفة في نشر روح التسامح والتعايش والتناقص المجتمعي من خلال تبادل العلاقات بين مكوناته الاجتماعية بشكل سلمي ملحوظ ومع وجود الكثير من العراقيل والصعاب في هذه المسيرة الآن روح الاندماج الاجتماعي ونشر هذه الثقافة بين جميع مكونات المجتمع العراقي والذي يتضمن معاني عديدة تدل على التوحد والانصهار وحضور الذات الفاعلة الداخلية لايجاد التماسك الاجتماعي الفعال وهو افضل السبل لايجاد علاقة مثمرة ومميزة داخل اطار التناقص بين ابناء المجتمع عندما يتسم هذا التناقص مستقبلا بالاجيائية والاشعاع الحضاري .

خاتمة

ان التعايش السلمي من أوضح الظواهر الاجتماعية في المجتمع العراقي انطلاقا من متغيرات حضارية ودينية وهذه المنطلقات جعلت من هذا التعايش امرا طبيعيا ، وان تعدد الأديان والقوميات في المجتمع العراقي لم يخلق مشكل او اصطدامات بين الطوائف والملل الموجودة فيها بل على العكس خلق انسجاما رائعا بينهما وتفاهما اجتماعيا قل نظيره في المجتمعات الأخرى وهذا ما نلاحظه في المحلة العراقية فلم يحفظ لنا التاريخ إخبارا عن حروب أو فتن حصلت بين الطوائف والمذاهب الدينية في المدينة ، لكن هذا لا يعني عدم حدوث بعض الخلافات أو المشاكل البسيطة التي فرضتها بعض الظروف وهو امر طبيعي ما لم يتطور او يحدث نزاع أقوى .

لقد تداخل العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية لجميع الطوائف والمذاهب نتيجة المعاش الطويلة والذوبان الاجتماعي واقتباس احدهما من الاخر ما يكمله ويقويه ويضيف اليه الجديد والمفيد وكان للتقارب الاجتماعي الناجم من الجيرة والاختلاط في السكن او العمل او الدراسة اثره على التقريب بين الثقافات وتداخلها ووجود قيم ومبادئ مشتركة تجمع افراد المجتمع في المحلة الواحدة.

المبحث الرابع

التوصيات والمقترحات

١. التأكيد على مفاهيم الثقافة وعملياتها داخل المجتمع العراقي من خلال العودة إلى التراث الاجتماعي والحضاري في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية .
٢. الاستفادة من تجارب المجتمع العراقي عبر قرون طويلة في فهم الثقافات الفرعية وما فيها من سمات وخصائص في التفاعل الاجتماعي وأنهم مصدر قوة للثقافة المجتمعي .
٣. تمكين المجتمع من خلال البحوث والدراسات والدورات والورشات في الحفاظ على روح الثقافة والتسامح .

Coexistence in the Iraqi Locality An Analytical Study of Societal Acculturation of Nowadays and Future

Lect. Qusay Riad Canaan

Abstract

When you talk about diversity on the level of Iraqi society, we are facing a social entity witness culturally diverse at the level of time, place and social group , where we grew up on the land of this country and we are intertwined with other culturally , socially and spiritually , and therefore, the social systems in our society carried the advantage of cultural pluralism , but reacted to these parts among them , one of them touching on the problem of the other sub-cultures within the culture of the motherland.